رواية (الشيخ الأبيض) لسلطان القاسمي

التاريخ والهوية خلف أسوار السرد

عموري السعيد

جامعة بجاية-الجزائر

213 777126584

Said_amo@yahoo.com

مقدمة:

يمتدّ الحديث عن الهوية والاختلاف أو الأنا والآخر الفكري، الثقافي، السياسي، الجغرافي التاريخي، العرقي...الخ، إلى مسارات متشعبة تنحوا منحى التجريد والفلسفة والتنظير، كما تتجه -في سياقها المنهجي- اتجاهات عميقة تستحضر كل معاني الإنسان ونشاطاته وتكوينه الوجودي بين العالم المتحقق والمثالي، وحتمية الواقعي والتاريخي بمقاربات أفقية، تحاول قراءة كل خفي ومتجلي وفهم وتفسير وتأويل الظواهر الانسانية وتعالقها، عبر صيرورة تحولات لنشاطات الانسان الفكرية والأدبية بخاصة، باعتبارها مظاهر تحقق تمتلك – عبر جسد اللغة- إشارات تفعيل عملية التلقي والتأويل.

كما أن النص المتحقق -رواية مثلا-باعتباره نشاطا إنسانيا دائما ما يطرح علامات الاختلاف والهوية من خلال اللغة كتشكيل دال وما ينتمي إليها من حقول دلالة في مستويات تفسيرية وتأويلية، من أجل ذلك نحاول في مقاربتنا قراءة الهوية والاختلاف في الرواية الإماراتية(الشيخ الأبيض)[1] للدكتور سلطان القاسمي أن نتجه اتجاها عموديا بنطلق من النص عبر جسد اللغة لقراءة العلاقات التي أنتجتها وتنتجها اللغة السردية في مستوياتها التسنينة التي تعمل على تنميط القراءة التأويلية لحدود رؤية الأنا للآخر التاريخي والثقافي وما إليهما من معاني، لنكوّن قراءة مستجيبة متعاونة غايتها «دراسة كيف يبرمج النصُ شكل تلقيه، ودراسة ما يقوم به القارئ وبالأحرى ما ينبغي أن يقوم به القارئ الفطن كي يستجيب على نحو حسن للنداء الكامن في البنية النصية»[2].

ونبحث من خلال ذلك في عملية التنميط أو رسم العالم التأويلي كعامل أيديولوجي للكتابة السردية.

إنّ طبيعة القراءة التي نقدمها في هذه المداخلة تعمل على مناوشة النص باعتبارنا الآخر الذي يدخل في صراع حجاجي وجدال فكري مع أيديولوجيا الكاتب والكتابة ولا يقبل السير في مسارات ومعالم تقدمها التسنينات اللغوية لرسم العالم التأويلي. ومن أجل ذلك لم نقم بتتبع مسارات الرواية الإماراتية لكي لا نعيد ما يقال عن نشأتها وسيرورتها التاريخية وإحصاء منتجاتها وقراءة طروحاتها. كما أننا ذهبنا إلى قراءة مصطلحات كالأيديولوجيا والهوية والاختلاف والثقافة في علاقتها ببعضها؛ لأنّ المقام لا يتسع لاستقراء مجالاتها المفهومية عبر تاريخها.

في عالم رواية (الشيخ الأبيض):

تقدم رواية الشيخ الأبيض سردا تاريخيا لأحداث واقعية، تروي تفاصيل سيرة الامريكي عبد الله بن محمد (Johannes Herman Poll) الذي انتقل في العاشرة من عمره للتدرب على الملاحة البحرية مع السفينة الأمريكية التجارية ESSEX إيسكس من مدينة (سيلم) من السواحل الأمريكية إلى خليج عدن والمناطق الساحلية لبحر العرب، وتم في تلك المناطق وبالضبط في جزيرة كمران بساحل اليمن في أواخر أفريل 1806 الاستيلاء على السفينة وقتل طاقمها ومصادرة ما كان عليها من مال وعتاد، في محاولة انتقامية من التاجر العربي صاحب القوة والنفوذ السياسي محمد بن عقيل من الانكليز الذين نازعوا حلفاءه الفرنسيين بسط السيطرة على مناطق الخليج العربي ومحاولة منعه من شراء جزيرة كمران لصالح غرمائهم الفرنسيين من الشريف حمود حاكم أبي عريش.

---

[1]- الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، رواية الشيخ الأبيض، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة، 1996.

[2]. سحلول حسن مصطفى ، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001. ص.13.

وخلال عملية الاستيلاء أخذ السيد محمد بن عقيل الطفل(بولPoll) للعيش عنده بطلب من زوجته لاتخاذه ولدا لها، ومن هنا تبدأ سيرة الفتى عبد الله كما سماه أبوه محمد بن عقيل الذي أحسن تربيته علما وفروسية وقيادة، وجعله يتشبث بالأرض العربية وبهويتها الإسلامية ولا يرغب في الرجوع إلى بده الأصلي على الرغم من محاولات الأمريكان مساعدته على ذلك، خاصة حينما شبّ وتحمل مسؤولية تجارة ومملكة أبيه محمد بن عقيل في منطقة ظفار بعمان التي أنشأها بعد جهد وتقلب سياسي بين موالاة ومعاداة أمراء المنطقة وطول أمل في الولاية من العثمانيين، فكان لعبد الله أن واصل المسيرة وقدّم ولديه فداءا للحفاظ على مملكة أبيه في معركة ضد قبائل المنطقة، وهي ذات المعركة التي وقع فيها جريحا وبدأ في حكاية قصته من البداية.

1- الأيديولوجيا والعالم التأويلي في النص السردي:

إنّ البحث في مفهوم الأيديولوجيا متشعب ومتباين على اختلاف الاتجاهات الفكرية والفلسفية ولعل المقام ليس بمقام التفصيل النظري في الحدود المفاهيمية للمصطلح، غير أننا نتبنى المفاهيم التي ترى في الأيدولوجيا ارتباطا تاما بالعلامة اللغوية أو بفعل الكتابة بمفهومه الواسع وتدعو إلى دراسة الأيديولوجيا انطلاقا من التشكيل النصي فإن « كل شخصية وكل هيئة تمثل في الرواية إلا ولها صوتها الخاص ولغتها الخاصة، وأخير أيديولوجيتها الخاصة. وهكذا فلا حاجة تدعو إلى مقابلة الرواية بالواقع لأن الواقع حاضر على المستوى اللساني نفسه »[1] وتمثّل الأيديولوجيا في الرواية قائم أساسا على الحجاج والصراع والهيمنة الأمر الذي يُؤكده **بارث Barthes** حينما يقرر أن « الخطاب..ينشط في حافزه التاريخي عن طريق المصادمات»[2] وليس على القبول والتجاوز وذلك على اعتبار أن العلاقة بين « النص ومحتواه الأيديولوجي هي علاقة حجاج »[3] بحيث تعمل الأيديولوجيا على التنكر والاختفاء خلف إشارات وعلامات اللغة التي تؤثث لعالم تأويلي يخدم رؤيتها لمسارات التأويل وحدود المقصدية.

إنّ النص الروائي بوصفه كيانا لغويا، يصبح مجالا أساسيا للصراع الأيديولوجي متجاوزا الاختلاف بين المنهجين الشكلاني والماركسي، ذلك أن الصراع الأيديولوجي حول المصالح الاجتماعية والاقتصادية يتحول إلى بنيات لغوية تعبر عنها؛ لأن «كل تجل كلامي هو بنية أيديولوجية تعبر عن مصالح اجتماعية»[4] والبحث في الخاصية المميزة للكتابة الروائية التي تعبر عن الصراع الأيديولوجي

---

[1]. لحميداني حميد ، النقد الروائي والأيديولوجيا، ص. 33.

[2]– مكدونيل ديان ، مقدمة في نظريات الخطاب؛ ترجمة عز دين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001. ص69.

-3 Machery Pierre,Pour une théorie de la production littéraire , Paris, maspero , 1966 p156.

[4]. البحراوي سيد ، علم اجتماع الأدب، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط، 1، 1992، ص. 53.

عن طريق فهم «السياق الصوتي والسردي كوقائع اجتماعية تتصل بالمستوى الدلالي»[1] تحدد طابع كل فترة في مراحل تطور المجتمع وهذه «الوضعية السوسيولسانية هي التي تدلنا على حقيقتها الأفكار والأيديولوجيات المبثوثة في النص»[2].والتي تيتدعي قراءة المستوى الذي يقدم الايديولوجيا على شكل إشارات ومعالم أو تسنينات تعمل على تحديد عالم التلقي وترسم مساراته التأويلية؛ وتُدخل المتلقي – بفعل المشاركة التلقياتية- في قيمة تفاعلية يحدد بفضلها موقفا ما من القراءة الايديولوجية في النص وبالتالي موقفا من العالم المُنجز.

إنّ شكل أو أشكال التحقيق في النصوص ضمن سيرورة تعبر عن نشاط وسلوك إنساني يعتبر **سننا** أو تكثيفا للممارسة الإنسانية على اختلاف أنماطها وأنواعها فهو مثل العادة بمعناها العريض والواسع، بيد أن النشاط الإنساني المتميز بالكثافة لا يمكن اختزاله في نمط واحد أو سنن واحد وبالتالي فإن الحديث عن أنواع من أنماط التسنين أمر منطقي من منطلق أن التسنين ترجمة كذلك و انعكاس وتحيين لعلاقة الإنسان بالوجود وبالعالم.

يقرر بارث Barthes أن «الوحدات الناتجة عن السنن-تلك التي نقوم بإحصائها-تشكل في حد ذاتها مخارج للنصوص، إنها سمة ونقطة للانزياح المحتمل عن السجل، إنها شظايا لهذا الشيء الذي سُبق وأن قُرأ ورُؤي وعيش. إن السنن هو الآثار التي تدل على شيء سابق»[3] لقد جاء حديث بارت من خلال تقسيمه لأنواع السنن التي تحدد طبيعة العلاقة التي يقدمها النص السردي بين النص كشكل تحقق تصدر من الانسان وبين تصور الانسان وفهمه للكون من خلال تحيين المعنى في شكل مادي لغوي. وهو الحديث الذي يأخذنا في مدونتنا قيد الدراسة إلى قراءة المختلف والمتباين في السرد الحكائي من خلال قراءة عكسية للنص؛ بمعنى قراءة السنن في علاقته مع المختلف والآخر اللغوي لمعرفة وتحديد القيمة السياقية والتفاعلية المُنتجة في النص؛ بحيث تشتغل الأيديولوجيا في ثنايا أصغر وحدات السرد التي –ربما- لا يلقى لها بالا، وذلك على اعتبارها سلسلة إرغامات وسلوكات ينشطها الإنسان وتنعكس في سلوكات محققة ومحيّنة،كما أن الأيديولوجيا في السرد لا تقدَم فقط كمعطى مباشر أو ضمني ولكن – تقتضي دراستها- تحديد كيفية إنتاج سلوك معيّن للأيديولوجيا ما، وتحويله إلى صياغة نصية بسيطة أو مركبة وتقتضي مقاربة الأيديولوجيا في النص كذلك الاعتماد على شرط أساسي وهو اعتباره منتجا للأيديولوجيا وحاملا لها.

---

[1]. المرجع نفسه، ص. 53.

[2]. عيلان عمرو ، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، ، منشوراة جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001ص. 68.

[3] بنكراد سعيد ، النص السردي: نحو سيميائيات للأيديولوجيا، دار الأمان، المغرب، ط.1، 1996. ص16.

إن الأيديولوجيا هنا هي ما يكن أن نقاربه بأنه ذلك المضمون الخارجي الخاضع إلى صياغات متعددة، كما يمكن أن نقارب التسنين الأيديولوجي عن طريق الاعتراف بشمولية وتسلسل العلاقات التي ينتجها المجتمع وينظم بها مضامينه في مرحلة أولى ثم تحويلها في مرحلة تالية إلى صيغ تصويرية؛ أي إن «نمط الانتقال من المادة المضمونية إلى الجزئيات(أشكال التجلي) هو ما يحدد فعلا ما نطلق عليه الأيديولوجيا» [1]. إنّ عملية التسنين الأيديولوجي تشتغل في مساحة (الهوة) بين السارِدَين، الأنا الكبرى(السارد بوصفه كونا يفيض عنه النص، ومجموع الأنات المتحركة داخل النص.

2- النص الأدبي وسيط ثقافي:

إنّ النص السردي كشكل من أشكال التحقق يقتضي تحديد عناصر وحدود الشكل المتحقق، ذلك أن عملية فهم وتأويل علاقة الجهاز السردي بالجهاز الأيديولوجي تحتاج إلى شكل مادي يفتح مخبر المقاربة على اختلاف خلفياتها المعرفية وآلياتها الإجرائية. فهو بذلك يعتبر وسيطا ثقافيا يعبّر عن نشاط إنساني تواصلي يتم عبره رؤية الآخر ويتصل بفعل القراءة وسياقات النقد، فالثقافة« ليست فقط المبادئ الجمالية للشكل والجمال التي توجد في الفن العظيم، أو باعتبارها صوت الروح الإنسانية التي تتجاوز حدود الزمن والأمة لتخاطب إنسانا عالميا متخيلا... لكنها طريقة للحياة»[2] طريقة تعبير عن الوجود والهوية وطريقة اتصال بالآخر الفكري والسياسي ومعرفة حدود العالم ورؤية متجلية عبر سلوكات ونشاطات تتمظهر عبر أدوات اللغة بمختلف تسمياتها. وليس النص الأدبي إلا وجها من تحقيقات وتحيينات الثقافة في العالم الكوني، ومن خلاله نقرأ الأنا عبر اتصاله بالآخر والاختلاف مع كينونته.

يمثّل النص بنية كبرى يتحول فيها الأدب إلى « مؤسسة اجتماعية لإنتاج القيم النصية والثقافية العامة وإعادة إنتاجها »[3] وذلك عن طريق تنويعات الإنتاج النصي الفاعل في تشكيل البنية الكبري التي تتعالى لتصبح خزان القيم للأمة وتاريخها، وتعتبر اللغة الجزء الأهم في البنية على اعتبار أن القارئ -من خلال خلفياته المعرفية- تتعد خلفياته النصية بتعدد القراءات وقياسا بمدى انفتاحها وانغلاقها وهكذا « نجد أنفسنا أمام تجاذب تاريخي وتصارع لاسيما في القراءات التي تتعدد فيها الخلفيات النصية سواء على صعيد الكتابة أو القراءة »[4] ولا يكفي في عملية تحليل النص الكشف عن العلاقات الداخلية التي تمتد داخل النص وتظهر في المعاني الأساسية ومعاني أبنيته فحسب، بل يجب أن يتسع التحليل ليضم المعاني الخارجية للنص، وسماها المعاني الإضافية أو الإشارية أو الإحالية أو التداولية. لذلك فإننا

---

[1] بنكراد سعيد، النص السردي: نحو سيميائيات للأيديولوجيا، ص24.

[2] -حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007،ص45.

[3] – يقطين سعيد ، انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء،ط1، 1988، ص150.

[4] – المرجع السابق، ص151.

نحاول قراءة ما لم تقدمه روايتنا (الشيخ الأبيض) من معاني الصراع بين هوية البطل الأصلية وهويته العربية الإسلامية، أو إننا سنحاول قراءة التسنينات الإيديولوجية على غير تفسيرها المباشر بمعنى عن طريق مقارنتها مع وسائط السرد الأخرى كالزمن والفضاء المكاني.

تمثّلات الهوية والثقافة في (الشيخ الأبيض):

يأخذنا البحث في تيمة الهوية إلى التساؤل بدءا عن حدودها المفاهيمية وإشكاليات البحث فيها أم عنها، فالأمر ليس سيان لاعتبار أن « البحث في الهوية بحث معرفي، أما البحث عن الهوية فبحث أيديولوجي غالبا، البحث في الهوية بحث صنع لهذه الهوية ومتابعة لصنعها باستمرار، أما البحث عنها فيعني أنها منجزة، ولكنها ضائعة يجب البحث عنها» [1] لذلك نجد أنّ البحث فيها في روايتنا يأخذ منحى العلمية والموضوعية، وانطلاقا مما يقدمه السرد في شكله الخطي وفي مضمونه الحكائي نحاول مقاربة تمثّلات الهوية في (الشيخ الأبيض)

إنّ السرد الحكائي في روايتنا يقدّم تيمة الهوية من منحيين مختلفين؛ فمن خلال صيرورة الأحداث التي يمثل البطل عبد الله (poll) مركزها، نجد أن الهوية قُدّمت على اعتبار المكاني والزماني في السرد من جهة ومن جهة أخرى تعاكسُها مع منطق الحضارة السائد في زمن الحكي؛ أي إن مفهوم الهوية في الرواية وتعالقه بالآخر عن طريق صيرورة الفضاء السردي، يستوجب تحديد تمثلاتها من خلال مسار خطي منسجم مع خطية السرد أي عبر مراحل حياة البطل عبد الله، ومن جهة أخر نقرأ تمثلات الهوية عبر صراعها مع الآخر الثقافي والحضاري عبر مقاربة الهوية العربية الجديدة لعبد الله – كمحور حدثي- مع منطق الحضارة كواقع تاريخي يمثّله الوجود الفرنسي والانكليزي والعثماني في الجزيرة العربية، وذلك كما يلي:

3-1- تأثيث الهوية العربية عبر صيرورة الفضاء:

إنّ ما يميّز السرد الحكائي في الرواية هو خطيتها؛ بحيث تتبّع السارد بتقنية (السارد العليم) مراحل تاريخية مفصلة لحياة البطل عبد الله poll؛ وهو المسار الخطي التفصيلي الذي يبرز العلاقة العكسية التي تبنيها الأحداث بين تلاشي صورة الهوية الأصلية للبطل وبين تأثيث الهوية العربية الجديدة التي هيمنت على الأولى؛ وبالاحتكام لعامل الزمن الخطي لسيرورة حياة البطل عبد الله، يمكن أن نمثّل للعلاقة بين الهويتين كما يلي:

1-محمد راتب حلاّق: نحن والآخر(دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص53.

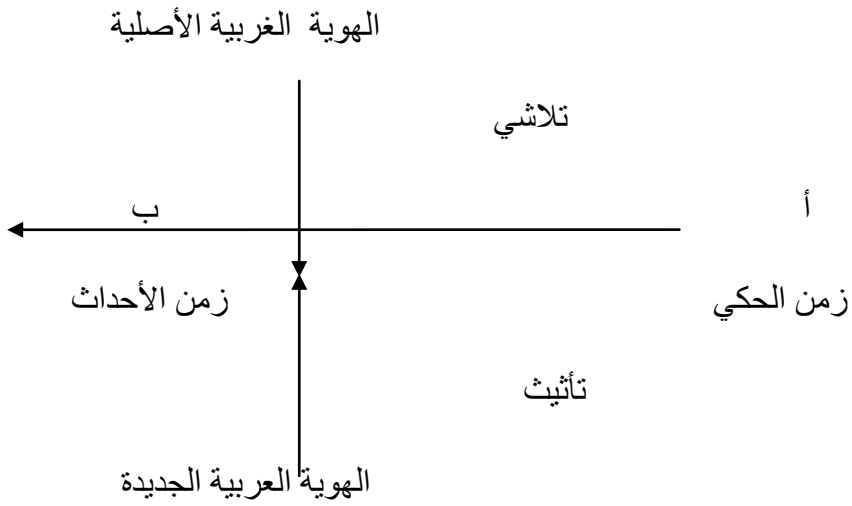

كلما اتجهنا عبر مسار الأحداث من النقطة أ إلى النقطة ب ، كلما تأثث عالم جديد للهوية عند البطل pollالذي صار عبد الله، وبالتالي فإنّ صراع الهويتين كان لصالح الهوية العربية الجديد، ولكنّ عملية التوصيف لتمثل الهوية عبر المسار الزمني للأحداث لا تكفي لفهم صورة الصراع بين الهويتبن إلاّ إذا تتبعنا نقاط التحول عبر صيرورة الحكي، ووقفنا على حدود المعالم التي يبنيها السرد لأدلجة عملية القراءة وبناء معالم التأويل وذلك عبر اسئلة تلك المعالم ومناوشتها لاعتبارها إرغامات غير اعتباطية ينتظم بها هيكل السرد لقصد بناء عالم تأويلي مُهيّأ سلفا، والتأويل هنا ليس فعلا مطلقا « بل هو رسم لخارطة تتحكم فيها الفرضيات الخاصة بالقراءة وهي فرضيا تسقط_انطلاقا من معطيات النص- مسيرات تأويلية تطمئن إليها الذات المتلقية» [1].

لأن كل علامة تحيل على علامة أخرى وفق مبدأ المتصل الذي يحكم الكون الإنساني فإن ما يدرك اللامتناهي هو إرغامات تدرج التأويل ضمن كون متناهي، وهي حواجز تقلص من حجم السيميوزيس وتفرض عليه غايات بعينها. وفكرة التأويل المتناهي هذه تستند على (التحديد) الزماني والمكاني ففكرة الإرغامات المنطقية تقود إلى تضمين التأويل غايات دلالية. وتقوم في نفس الوقت على إقصاء أخرى، وفي روايتنا نجد تحولات الفضاء تطرح أسئلة الهوية لأنّ النتقال تمّ من الفضاء المكاني الجميل- تجاوزا- إلى بيئة صعية المراس لكنها شكّلت هوية جديدة ثابتة، فما هي حقيقة العلاقة التي يرسمها الفضاء في تثبيت الهوية؟

1- إيكو أومبيرتو ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط1، 2000، ص14.

تقدم رواية الشيخ الأبيض رسما لفضاء سردي بكل حيثياته قبل وأثناء انتقال الطفلpoll إلى الجزيرة العربية مرورا برأس الرجاء الصالح بطريقة اتقط فيها السارد جزئيات المكان بكثافة لتهيّء لرسم خيالاته في ذاكرة البطل بعد مرحلة تكوين هويته العربية الجديدة التي انطلق من خلالها فعل السرد، وبتلك الخيالات يحول صراع الهوية بين الذاكرة – كخيالات جميلة- وبين واقع معيش يحمل على رسم صورة تضاريس وحياة عربية تتسم بطابعها الخشن واللامستقر« سرح عبد الله بخياله محاولا تذكّر موطنه الأصلي. كانت تتراءى أمامه صور غير مكتملة. الزمن واستمرار وجوده مع العرب محت من ذاكرته كثيرا من صور أيام حياته الأولى»[1]

على الرغم من خشونة الحياة الجديدة القائمة على الصراع (صراع مع المناخ، الحروب الدائمة) إلاّ أنها تغلبت على خيالاته الطفولية الجميلة في مدينة (سيلم) الأمريكية مع الأهل والأصدقاء« تذكّر والده ووالدته، والأشياء التي كانت في بيتهم، مرآة كبيرة، وساعة حائط، وكتبا كثيرة، كذلك مرّ بخياله ذهابه إلى المدرسة، وحاول أن يتذكر شيءا مما تعلمه لكنه لم يستطع»[2] ولا شك أن مرحلة طفولته وأشياءه فيها تعكس صورة حياة مدنية (كتب كثيرة ، مدرسة) تختلف تماما عما سيعيشه عند العرب، وهنا نتسائل لماذا استطاعت الهوية العربية الاسلامية أن تهيمن على الهوية الأصلية- بالمعنى الاثني- أو الانتماء العرقي والجغرافي؟

يقرر علماء الاجتماع أنّ« عملية تشكّل الهوية الإثنية تم تضمينها ووضعها ضمن مفهوم التقدمية والتطورية»[3] فإذا حاولنا معرفة تخوم هيمنة الهوية العربية على الهوية الغربية الأولى بالنظر إلى السير الخطي للأحداث وجدناها تمر عبر مراحل ثلاثة تمثّل تسنينات ايديولوجية لفعل التلقي وسنجد أنها تعارض ما أقرّه السارد من أنّ طول إقامة عبد الله في البلاد العربية أنسته صور ذكرياته، بل بالعكس ففي كل مرحلة مما سنأتي على ذكره نجده يذكر أهله وأصله ولكن الهوية العربية الإسلامية الجديدة هيمنت على شخصه، وهي السبب في تغيير هويته:

أ- مرحلة الطفولة: عمر عبد الله 14عام

إنّنا لا يمكن أن نرجع أسباب تحول الهوية الغربية إلى الهوية العربية إلى تحوّل الفضاء المكاني؛ فأرض العرب أشدّ بأسا وشضفا من رخوها في أمريكا، وإذا أرجعنا سبب هيمنة الهوية العربية على الهوية الغربية الأصلية إلى أنّ الطفل poll كان تحت إمرة قسرية من محمد بن عقيل فإنّ الراوي نفى على لسان

---

[1]- الشيخ الأبيض، ص8.

[2]- نفسه، ص9.

[3]- منير غسان وآخرون: الهوية الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002، ص104.

ابن عقيل في إحدى رحلاته عام 1810 (عمر عبد الله 14 عام) أن يكون الولد عبد الله عبدا لديه « أجاب السيد محمد بن عقيل بأن الولد عبد الله ليس عبدا لديه، وهو يستطيع أن يذهب إذا رغب في ذلك »[1] ولكن الولد عبد الله لم ينتقل إلى موطنه الأصلي، وقد ورد أن الخوف هو السبب الأساس.

ب- مرحلة المراهقة والشباب: عمر البطل 23 عام

تشهد هذه المرحلة تشبّع عبد الله من حياة العرب ونهله من معين الدين الإسلامي، وبداية تفتحه على معاني القيادة والمسؤولية والسيادة، وظهور ثمار هوية جديدة اكتسبها من دون اي إكراه من أي طرف ومن دون أي عامل جغرافي بل هي العروبة والإسلام؛ وإذا أرجعنا سبب رفض عبد الله الرجوع إلى طول مدة الإقامة بين العرب- كما أورده الراوي- فإنّ البطل عبد الله كان بإمكانه الرجوع على فترات متباينة في مراحل إقامته عند أبيه (محمد بن عقيل) وهو الذي كان يسوّف الأمريكان الرجوع معهم حينما كبر، ففي عام1819 كان عبد الله متزوجا وقائدا مسؤولا في سفن محمد بن عقيل لما التقى السفينة الامريكية Syren وعرض عليه مسؤولوها الرجوع والمساعدة، قال « ليس لدي رغبة في الرجوع إلى بلدكم، وخاصة في حياة محمد بن عقيل، فإنّ ذلك غير ممكن تماما، وإنّ ولديّ اللذين أحبهما أفضل عندي من موضوع الحرية التي تعرضانها علي»[2]. إنّ السبب المباشر لعدم رجوع عبد الله في هذه المرحلة يعود -كما رود- إلى أسرته وولديه وهو في الحقيقة ليس السبب الحقيقي إنما الحقيقة أنّ الهوية الجديدة جعلت منه انسانا جديدا ففي المرحلة التي سميناها ما بعد الحكي وبعد وفاة ولديه لم يعد إلى موطنه بل عمّر منطقة ظفار وصار شيخا لها.

ج- مرحلة الرجولة : عمر عبد الله 36 سنة

وهي المرحلة التي صار فيها عبد الله مسؤولا مباشرا عن أملاك محمد بن عقيل بعد اغتياله من طرق قبيلة (القرا) وفيها – سنة 1832-التقى ربان سفينة كومبلكس الذي عرض عليه العودة إلى الديار فرفض، ولكن هذه المرة لم يُذكر السبب في الرواية بل إن عبد الله من خلال حواره مع الربان أوعز ذلك إلى نفسه بعد أن كان يوعزه إلى ولديه في المرحلة السابقة، ليقول إنه في هذه السن صار ملك نفسه وقراراته وشخصيته ومنها هويته « عرض عليه كابتن بيرنهام الرجوع إلى (سيلم)، خاصة وأنه وعد كابتن كوك بالرجوع إلى الولايات المتحدة بعد وفاة السيد محمد بن عقيل، لكن عبد الله وفض ذلك قائلا: إنه ليس لديه الرغبة في الذهاب إلى الولايات المتحدة بعد وفاة السيد محمد بن عقيل »[3]. ولعل ذلك ما يدلنا على أن

[1]- الشيخ الأبيض، ص54.

[2]- نفسه، ص67.

[3]- الشيخ الأبيض، ص76.

الأسباب التي ذكرت في المراحل السابقة لم تكن السبب المباشر في عدم رجوع عبد الله إلى موطنه الأصلي لتهيمن عليه الهوية العربية والإسلامية الجديدة وتصبح هي الهوية الحقيقية القارة لشخصه.

3-4- مرحلة ما بعد الحكي زمن الحكي يساوي زمن الأحداث:

إنّ إتباع كل مرحلة من المراحل السابقة بجملة دالة عنها يقدّم تسنينا أيديولوجيا لتاثيث عالم تأويلي ومعين، وعبر تلك الجمل ذاتها نجد أن حقيقة الهوية العربية الإسلامية لم تتحقق عبر تلك الجمل التي تدل على أن الزمن والبعد عاملان أساسيان في هيمنة الهوية العربية على الأخرى الغربية، وبالتالي فهي تسنينات خطابية أدلجت فعل التلقي، وبفعل قراءتها الجديدة وبفضل مقارنة الجمل يمكن أن نستخرج مرحلة جديدة سميناها تجاوزا مرحلة ما بعد الحكي لأن جملة واحدة تعمل على إنهاء فعل السرد بتطابق الهوية الجديدة مع الأرض العربية ممثلة في تقرير الإنتماء، انتماء عبد الله لأبيه محمد «وصل عبد الله بن محمد بسفينته إلى مسقط فوجد أخبار وفاة والده قد سبقته إلى هناك»[1] ونجد تطابقا في كل ذكر لعبد الله مع أبيه محمد الشيئ الذي لا نجده كثيرا في بدايات النص، وكأن تلك المحددات السردية تتكاثف لتنتهي عند نقطة النهاية/ البداية أي تطابق الهوية الحقيقية التي هي العربية الإسلامية مع شخصية عبد الله بن محمد وتلاحمها مع دمه« فغضب غضبا شديدا و أقسم لينتقم لوالده السيد محمد بن عقيل »[2]. ويمكن أن نمثّل لهذا الشرح بالشكل التالي:

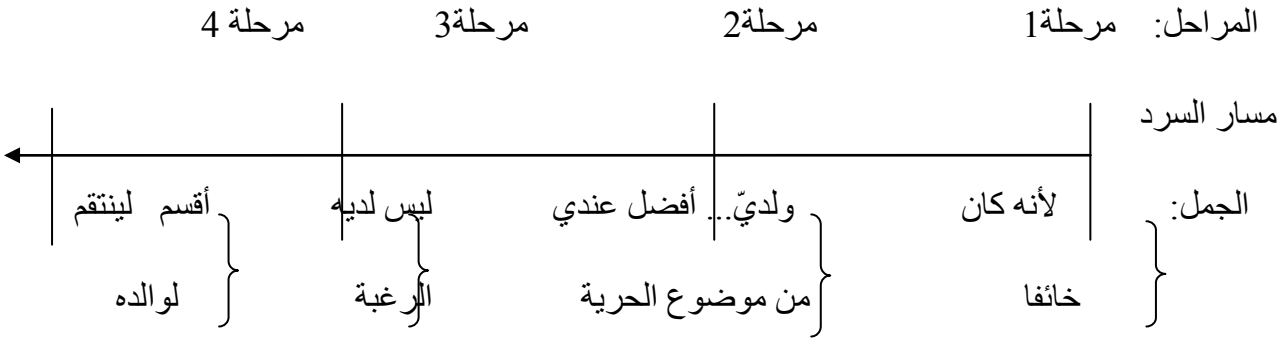

[1]- الشيخ الأبيض ص 74.
[2]- نفسه، ص77.

نستنتج شيئا مهما من خلال ملاحظتنا للمراحل السابقة أنّ الراوي من خلال إقراره أن عبد الله نسي هويته لطول إقامته في بلاد العرب ليس من الحقيقة في شيئ وليس السبب المباشر في هيمنة هويته الجديدة العربية الإسلامية على هويته الغربية الأصلية، وقد أوضحت التسنينات الخطابية التي سايرت مراحل الحكي أنّ الامر يتعلق بما احتوته العروبة والإسلام من رحاب الحب الفياض للأرض وللإنسان.

3-2- الهوية العربية والآخر التاريخي والثقافي في (الشيخ الأبيض):

تقدم الرواية سردا تاريخيا للعلاقة التي تربط بين الأرض العربية كمحور أحداث وأطماع دول استعمارية تاريخية هي هنا الأنكليز الفرنسيين والعثمانيين على اختلاف رؤيتهم لمرجعية التملك سواء اقتصادي أم تحت مظلة الدين كالعثمانيين. غير أن ما تسرده الأحداث عن الأرض العربية يصور واقعا قبليا تقليديا يعتمد على الحروب القبلية وعلى تجارة البحر، ويصور من جهة أخرى حضارة تلك الدول على اعتبار تقدمها ومدنيتها من ذلك ما نجده مثلا من وظائف البحر، فكل سفينة إلا ولها ربان أجنبي فرنسي أم انكليزي « كان السيد محمد بن عقيل يقوم بنقل مواد البناء من الحديدة والمخا، وكان له قبطانان فرنسيان يقومان بمسح الشواطئ» [1] وهو الأمر الذي يطرح مشكلة الهوية بطريقة غير تلك التي عرضناها عبر تحول صيرورة الفضاء؛ ذلك أنّ البطل عبد الله كان ينتمي بهويته الأصلية اساسا إلى تلك الحضارة المتطورة غير أنها لم تكن الهوية المسيطرة، وبالمقابلة مع الحضارة العربية التي تعتمد في أساسياتها المدنية على حياة شظف نجد أنّ الاختيار الحضاري كان في الاساس انتماء للأخلاق العربية وللدين الإسلامي العظيم الذي أدخل عبد الله في رحابه فكانت قبضته تمثّل بعثا جديدا وهوية جديدة دائمة لعبد الله الأمريكي الذي استقر في الأرض العربية(منطقة ظفار) وعمّر فيها.

يمكن في هذه المرحلة إجراء مقارنة انطلاقا بين هوية المكان وثقافة جديدة للهوية: الهوية القديمة والدين الاسلامي هوية جديدة.

خاتمة:

في ختام دراستنا يمكن أن نقرر ما يلي:

- تأسست الهوية في رواية الشيخ الأبيض عبر مقابلة الهوية العربية بكل زخمها الجغرافي والحضاري والديني مع زخم الحضارة الغربية وتاريخها.

[1]- الشيخ الأبيض، ص19.

- اشتغلت التسنينات الايديولوجية في النص على تمثيل صور الهوية الجديدة للبطل عبد الله، لكن قراءتها التأويلية كشفت كيفيات جديدة لبناء الهوية العربية عند البطل على أساس مقارنتها وصيرورة الفضاء السردي وتحولاته.
- لا توجد هوية واحدة في النص والأساس الذي تظهر عليه الهوية لا بد أن يكون بصراعها مع الهويات الأخرى بغرض الهيمنة والسيطرة التي تجمع إليها كل التسنينات الأيديولوجية في السرد.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، رواية الشيخ الأبيض، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة، 1996.

المراجع العربية:

1- البحراوي سيد ، علم اجتماع الأدب، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط، 1، 1992.

2.-بنكراد سعيد ، النص السردي: نحو سيميائيات للأيديولوجيا، دار الأمان، المغرب، ط.1، 1996.

3- حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007..

4-سحلول حسن مصطفى ، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

5-عيلان عمرو ، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، ، منشوراة جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001

6-لحميداني حميد ، النقد الروائي والأيديولوجيا، ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990.

7-محمد راتب حلاّق: نحن والآخر(دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.

8-منير غسان وآخرون: الهوية الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002

9-يقطين سعيد ، انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء،ط1، 1988،

المراجع المترجمة:

10-مكدونيل ديان ، مقدمة في نظريات الخطاب؛ ترجمة عز دين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001

11-إيكو أومبيرتو ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2000،

المراجع باللغة الأجنبية:

-12 -Machery Pierre,Pour une théorie de la production littéraire , Paris, maspero , 1966.